التربية الخلقية

كوسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي

ـ محاضرة في حلقة الدراسات الاجتماعيا

إخواني :

يسرني أن أجد من « حلقة الدراسات الاجتماعية » اللفتة الى « التربية الخلقية » واحتسابها « وسيلة لتحقيق ال الاجتماعي » ، وذلك في عصر تقهقرت فيه « القيم الأخ عن المكان الذي يجب أن تشغله في الحياة الاجتماعية ، تحت نظريات ومذاهب مختلفة ، تعمل على اغفال الآثار العلمية القيم ؛ ومن ثم تدعو الى اغفال تلك القيم ذاتها ، ونة الميدان الواقعي للحياة .

ونظراً الى تأثير تلك النظريات والمذاهب ، التي تم إغفال الآثار الايجابية للقيم الأخلاقية في حياة المجتمع ، نذ تأثيرها في الجو الفكري والاجتماعي في هذا العصر ـ أسمح لنفسي ، قبل الدخول مباشرة في الموضوع الذي ك دراسته : موضوع التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق الت

الاجتماعي ــ أن أنفــق بضعة سطور في الكــلام عن « القــيم الأخلاقية » ذاتها ، وتأثيرها في المجتمع البشري . فيجب أن يكون إيماننا وثيقاً بهــذه القيم ، قبل أن نحاول أيــة محاولة في حقل « التربية الخلقية » ، ذلك أن وظيفة التربية الخلقية هي : محاولة تحقيق قيم أخلاقية معينة ، تصطلح الجماعة على ضرورة تحقيقها ، وتؤمن بجدّيتها وأهميتها . فهذا الايمان اذن يجب ان يسبق تلك المحاولة .

إننا مضطرون اضطراراً الى الاعتقاد بأن الحاسة الاخلاقية ، او الاحساس الخلقي ، فطرة في الانسان ، بغض النظر عن نوع القيم الأخلاقية التي تسود مجتمعاً من المجتمعات ، ولم يقع الا في فترات شاذة في حياة البشرية ، او في نفوس شاذة ، استحسان عام للرذيلة واستهجان عام للفضيلة . إنمــا كان الاختلاف يقــع غالباً حول ما يعد رذيلة وما يعد فضيلة .

ونحن مضطرون اضطراراً كذلك ، الى الاعتقاد بأن العنصر الاخلاقي في حياة الناس ، لم يفرض على الأفراد فرضاً ، لا من المجتمــع ، ولا من الدين .. فالحاسة الاخلاقية عميقــة في فطرة الإنسان . ووظيفة الدين هي تنظيمها وتوجيهها ، ووضع المقاييس الثابتة لها ، فلا تميل مع الهوى والمنفعة وأغراض الطبيعة ، إنما ترجع دائماً الى معيار ثابت ، لا يتأثر بالأهواء ، أمــــا المجتمع فوظيفته هي حماية الفضائل التي يتفق عليها ، لا فرضها فرضاً ضد ارادة الافراد ، فالأخلاق لا يمكن فرضها من المجتمع ما لم

يكن لها أساس عميق في الفطرة . ذلـك ان المجتمع هو كتلة الأفراد ، مهما قيل في التطورات التي تدخل على عقلية الأفراد ومشاعرهم حينما يتكتلون في جماعة ولا بد ان يكون القانون الذي يحكم حياة الجماعة متسقاً في طبيعته مع القانون الذي يحكم فطرة الفرد ، ليمكن قيام مجتمع من هؤلاء الافراد ، ويمكن قيام مصلحة مشتركة بينهم ، على أساس ما يتواضعون عليه من نظم وتقاليد .

وأخيراً فنحن مضطرون اضطراراً الى نفي فكرة المنفعة كأساس للأخلاق ، اللهم الا اذا اعتبرنا ان مدلول كلمة المنفعة هو المصلحة العليا للإنسانية — وهو ما لا يعنيه أصحاب نظرية المنفعة في عـالم الاخـلاق — وكذلك الى نفي فكرة اللذة .. فالواقع ان العنصر الاخلاقي كثيراً ما يقوم على مقاومة اللذة ، ويكون في هذه الحالة ضرورة لحفظ كيان الفرد — فضلاً عن حفظ كيان الجماعة — الى حد أن مخالفته قد تحطم الفرد ذاته . فهو مفروض إذن لحمايـة الانسان من ذاتـه كذلك ، ولصيانة هـذه الذات ، وهو يقابل ضوابط الغريزة في الحيوان . هـذه الضوابط التي تحدد فترات الاخصاب مثلاً ، فلا يميل الحيوان الى اداء عملية الاخصاب الا في فترة معينة . أما الانسان فتضبطه ضوابط أخرى ، من القانون الاخلاقي ! ولو ترك بغـير ضابط فقد يحطم نفسه ، فضلاً عن تحطيم سواه .

على أية حال ، ننتهي الى اعتبار العنصر الاخلاقي أصيلاً في فطرة الفرد ، الى حد انـه داخل ضمن الوسائل الفطرية لحفظ

الذات . وان وظيفة الدين هي مجرد تنظيم هذا العنصر الفطري، وتوجيهه ووضع المعايير الثابتة له . وان وظيفة المجتمع هي حراسة القوانين الاخلاقية التي تصطلح عليها .. كما ننتهي الى اعتبار « القيم الاخلاقية » ضرورة في حياة المجتمع ، فليس أبأس من مجتمع ، المنفعة القريبة واللذة الشخصية هما محركا الفرد فيه ؛ بدون عاصم من هدف أعلى ، وبدون تطلع الى أفق ثابت .. ان صورة من هذا المجتمع البائس تعيش الآن بيننا ، وتؤدي الى ذلك التفكك الواضح في مجتمعات كثيرة .

• • •

لا بد إذن من قيم أخلاقية في حياة المجتمع ، ولا بد إذن من تربية خلقية تحاول تحقيق هذه القيم .. هذا بصفة عامة ... وهنا نجيء الى موضوعنا الخاص : « التربية الخلقية كوسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي » .

ان التكافل الاجتماعي عمل إيجابي في محيط المجتمع ، لا يتحقق الا أن يسبقه شعور دافع في عالم الضمير ، وسلوك واقع في حياة الجماعة .

والتربية الخلقية هي التي توقظ ذلك الشعور الدافع ، وتحقق هذا السلوك الواقع . حيث لا تكفي القوانين والتشريعات وحدها لإحداث ذلك الأثر . ومن ثم ، فالتربية الخلقية تعد وسيلة ايجابية وواقعية لتحقيق التكافل الاجتماعي ، وليست مجرد تطلع مثالي في آفاق الاحلام !

إن مشاعر كثيرة ، وعادات كثيرة ، يجب أن توقظ وتنمّى وتنظّم في ضمير الفرد وفي سلوكه ، ليقوم التكافل الاجتماعي على أساسها ، بل لينبعث التكافل الاجتماعي منها ، والتربية الخلقية هي المنوطة بتحقيق هذا كله في الحقيقة .

وأحسب أننا لن نخرج عن الموضوع ، حين نجعل الاسلام إمامنا في هذا الميدان ، فلقد حقق الإسلام في فجره الأول مجتمعاً قائماً في أساسه على التكافل الاجتماعي ، مجتمعاً يعد نموذجياً في تاريخ المجتمعات التي اتخذت التكافل أساساً للحياة ، الى حد ان يكفل الأنصار المهاجرين ، ويقاسموهم أموالهم ودورهم ومتاعهم ... ثم قامت نظم المجتمع الإسلامي كلها ، كما قامت تقاليده الشعبية على أساس التكافل الاجتماعي . فنظام الزكاة ، ونظام الميراث ، ونظام الوقف الخيري ، ونظام الجهاد ، ونظام الحرية ، ونظام المعاملات الاقتصادية غير الربوية ، كلها نظم تقوم على أساس التكافل الاجتماعي . وكذلك تقاليد الصدقة والبر والاحسان وحماية الضعيف ، والنجدة والفتوة ، كلها تقاليد تقوم على نفس الأساس . لن نخرج إذن عن الموضوع حين نبحث مسألة اعتماد الإسلام في إقامة مجتمع متكافل على التربية الخلقية ، وحين نجعله إمامنا في هذه التجربة ، التي نجح فيها كل النجاح . فإن ذلك يفيدنا في تحديد حقول هذه التربية ، ومعرفة وسائلها على السواء ، وينير لنا الطريق التي يمكن أن نسلكها اليوم كذلك لتحقيق مثل هذا النجاح .

لقد اعتمد الإسلام في تحقيق ذلـك المجتمع المتكافل عـلى تشريعات نظامية معينة ، ولكنه لم يدع هذه التشريعات تعمل وحدها مجردة من الدوافع الشعورية في عالم الضمير . لقـد استجاش هـذا الضمير ، بالتوجيه تارة وبالقدوة تارة ، وكانت وظيفة التوجيه هي ايقاظ الوجدان في عالم الشعور ، ووظيفة القدوة هي تأصيل العادة في عالم الواقع ... وبهـذا وذاك تمت التربية الاخلاقية التي أرادها للأفراد والمجتمعات .

لقد بدأ الإسلام بناء المجتمع في ضمائر الافراد ووجداناتهم ، فهناك في أعماق الروح غرس بذرة الحب ،ونسم نسمة الرحمة... الحب الإنساني الخالص ، والرحمة الإنسانية المبرأة . لقـد رد الناس الى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة ، وأيقظ في وجدانهم شعور النسب والقربى ، وذكـّرهم أخوتهم في الله، وفي المنشأ والمصير ، حتى اذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا أقرب الى التعاون ، وأدنى الى الإخاء :

« يا أيها الناس اتقوا ربـكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء .واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيباً » .. « مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى » .

وفي ظل الحب والرحمة دعـا النـاس الى الايثار ، والى التضحية بما هو عزيز على النفوس في سبيل اسعاد الآخرين . فلا

بد للتكافل من قوم يؤثرون عـلى أنفسهم ، ويضحـّون بالغـالي والعزيز عليهم ، فالمجتمـع فيه الواجدون والمحرومون ، واذا لم يؤثر الواجدون على أنفسهم ، واذا لم يضحوا بما يملكون لم يقم التكافل ، ولم يتم التعاون .

ولقد رسم القرآن الكريم صورة جميلة للايثار في نفوس أهل المدينـة ، الذين استقبلوا المهاجرين فآووهم وشاركوهم مسالهم وديارهم في رحابة صدر وسماحة نفس :

« والذين تبوّأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبّون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم — ولو كان بهم خصاصة — ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » :

وهي صورة للإنسانية العليا في أجمل صورها وأبدعها . وهناك صورة أخرى لا تقل عنها جمالاً ورقة وانعطافاً لجماعة من المؤمنين :

« يوفون بالنذر ، ويخافون يومـاً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام — على حبّه — مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً. إنا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً » .

ثم قال لهم : إن كل ما ينزلون عنه من مال او جهد لتحقيق التكافل الاجتماعي إنما هو قرض لله لا يضيع ، وان الكفّ عن بذله تهلكة في الدنيا والآخرة ، فأطمعهم في الثواب ، وحذّرهم

من العقاب ، وهما وسيلتان من وسائل التربية للضمير :

« من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .. « وأنفقوا في سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

وحثهم على التكافل الاجتماعي لا في دائرة المال فقط ، بل في كل شأن من شؤون الحياة ، وناط هذا بضمائرهم ، وملأ هذه الضمائر بخشية الله وتقواه . والتقوى في النفس هي أقوى عوامل التربية الشعورية وأعمقها .

قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » .

وقال رسول الله ﷺ : كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته . الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، والولد راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته » .

ولم يقف الإسلام عند مجرد استجاشة المشاعر الوجدانية — وهو يحاول التربية الخلقية — بل عمد الى تكوين عادات وآداب اجتماعية ، تعاون على التآخي وعلى التعاون والتكافل في محيط الحياة العملية .

ومن هذه الآداب والعادات الاجتماعية التي ربّى الإسلام

المسلمين عليها حسنُ القول ولطف الحديث وإفشاء السلام : « وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن » .. « ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم » .. « واذا حُيِّيتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها او ردُّوها » .

ومنها احترام الآخرين ، وحسن الظن بهم ، وحفظ غيبتهم ، وتجنب إغتيابهم ، واتقاء الله فيهم : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى ان يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكنَّ خيراً منهنَّ ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب . بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، ان بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه . واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .

وهكذا سار الإسلام في تهذيب المشاعر الإنسانية ، وتكوين الآداب والعادات الاجتماعية ، التي يمكن ان يلتقي الناس على أساسها ، وان يتعاونوا في يسر ، ويتكافلوا في طواعية . لأن أسباب هذا التكافل نابعة من ضمائرهم ، منبثقة من مشاعرهم ، وليست مفروضة عليهم فرضاً من خارجهم بحكم القانون .

• • •

نحن اليوم نملك ان ننتفع بهذه التجربة العملية ، التي حققها الإسلام يوماً ، وأقام على أساسها مجتمعاً متعاوناً متكافلاً . فما

هي الخطوط الرئيسية في هذه التجربة ، التي يمكن ان نتبعها في التربية الخلقية الاجتماعية ؟

إن الخط الرئيسي في أية محاولة للتربية الخلقية ، ينبغي ان ان يكون هو ربط الضمير الإنساني بأفق أعلى من الذات المحدودة والمصلحة القريبة . أفق يستعذب التضحية في سبيله ، ويستسهل الصعب في الارتقاء اليه ، فماذا يكون هذا الأفق العالي الجذاب ؟

لقد يرى بعضهم ان يكون هو العزة القومية . ولقد يرى بعضهم ان يكون هو الاخوة الإنسانية .. وكلاهما أفق كريم وضيء ، يمكن ان يرفع مشاعر الفرد عن أفق المنفعة القريبة واللذة الحاضرة ، فيقبل تكاليف التكافل الاجتماعي عن طواعية . أما أنا ؛ فأوثر ان أربط ضمير الفرد بأفق أعلى من هذه الآفاق جميعاً : أفق تنطوي فيه هذه الآفاق جميعاً .. أوثر أن أربطه بالله خالق الأوطان وخالق الإنسان ، أوثر ان يبذل ما يبذل ابتغاء مرضاة الله . ولو لم يشعر به وطن، ولو لم يكرّمه إنسان .. وأوثر ان يكون الحب في الله هو الذي يجمع القلوب، ويشبك الأيدي، ويلفّ السواعد . عندئذ تتحقق الصورة الوضيئة التي رسمها رسول الله — ﷺ — وهو يقول :

« إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الانبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا : يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم ، ولا اموال يتعاطونها . فو الله ان

وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون اذا خاف النــاس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » .

إن ارتباط الضمير الانساني بالله ، هو الخط الأول في اي تربية خلقية ناجحة عميقة الجذور . وهذا يقضي ان نتخذ العقيدة الدينية قاعدة أساسية للتربية الفردية أو الاجتماعية في سبيــل تكافل اجتماعي . لا يحقق مصلحة اجتماعية فحسب، ولا مصلحة قومية فحسب ، بل كذلك يحقق غاية انسانية أبعــد ، تتسم بالرغبة في ارضاء الله وحده والتضحية بالغالي والرخيص ابتغــاء وجهه الكريم .

وسنجد الأديان السائدة في البلاد العربية كلها في عوننــا — وليس الاسلام وحده — حين نعتزم أن نجعل العقيدة الدينيــة أساساً للتربية الخلقية ، في سبيل تحقيق تكافل اجتماعي ناجــح في هذه الرقعة من الأرض .

وحين يستقيم لنا هذا الخط الأساسي الأول ، حــين نربط ضمير الفرد بإلهه ، ونربط سلوكه بتقوى الله ورجائه ، حينئذ سيسهل علينا أن نغرس في هذا الضمير كافة المشاعر الـتي يقوم عليهــا التكافل الاجتماعي ، وأن نقود الفرد الى سلوك اجتماعي يؤدي الى تلك الغاية . فاذا جاء التشريع بعــد ذلك ليقيم الاساس العملي للتكافل الاجتماعي ، وجد طريقــه الى النفس الانسانية مفتوحاً ، وطريقه في الحياة الاجتماعية الواقعية ممهداً .

أما الخطوط الفرعية في محاولة التربية الخلقية فهي كثيرة .

ولكنها كلها ينبغي أن ترجع الى ذلك الخط الاساسي .

إن هذه الخطوط يجب أن تتجه الى تكوين عادات اجتماعية معينة ، عن طريق الايحاء والقدوة والسلوك العملي . فالعادة ضرورية لتثبيت الاتجاه الشعوري ، في بعض الأحيان تكون هي الوسيلة المضمونة الوحيدة لتحقيق هدف التربية الخلقية ... (مثال ذلك تدريب الافراد — سواء في المدرسة او المعسكر أو النادي أو أية تشكيلة جماعية — على العمل المشترك ، بكل ما يتطلبه من رغبة في التعاون ، ومن مشاركة وجدانية ، ومن تسامح ومراعاة لمشاعر الآخرين ، ومن تقبل للرأي المخالف ، ومن تضحية بالظهور الفردي رغبة في إنجاح العمل الجماعي ، ومن تقسيم للعمل وتنظيم لأجزائه ، ونظام في أدائه . . . وكل هذه صفات أو عادات لا تكتسب بمجرد التوجيه النظري ، بل لا بد فيها من المرانة العملية ، حتى يستحيل الشعور الداخلي بها سلوكاً واقعياً في الخارج .

كذلك عادة الاهتمام بالآخرين وأحوالهم وهمومهم ومشكلاتهم . وأنا أسميها عادة ، وإن كانت في أصلها شعوراً . وأقصد بها تنظيم هذا الشعور وتوجيهه وتهذيبه ، وتفريغه في صورة عملية تتخذ شكل العادة الثابتة في حياة الفرد ... فلا ينحرف فيصبح مجرد فضول أو تجسس لتلبية حب الاستطلاع الفطري ، ولا يتبخر في صورة انفعالات خيّرة أو شريرة ، وينتهي ... بل يهذب فيصبح اهتماماً خيّراً بآلام الآخرين

ومشكلاتهم ، ثم يوجه الى التعاون معهم ومعاونتهم ، ثم ينظم فيأخذ هذا التعاون شكلا جماعيا ينتهي الى التكافل .

وبالمثل تحول مشاعر الإيثار والتضحية التي يوقظها الشعور الديني والتوجيه التربوي ... تحول الى حركات تفرغ فيها هذه المشاعر ، أو بتعبير آخر الى أعمال ذات صفة منظمة ، يؤديها الفرد حتى تستحيل الى ما يشبه العادة .

وهنا أحب أن أنبه الى لفتة دقيقة ... إنني احب ونحن نحول المشاعر الوجدانية الطيبة في حقل التكافل الاجتماعي الى عادات ثابتة ، واستجابات عملية ... احب ان نحافظ على حيوية هذه المشاعر الوجدانية ، وان نوقظها دائما ، ونجعلها حاضرة مع الاستجابة العملية ... انني انبه إلى هذا بشدة نتيجة لما شاهدته في بعض البلاد الغربية من صيرورة التكافل الاجتماعي عادة عملية ، ولكن على حساب المشاعر الانسانية الرفيعة ! إن المتبرع مثلا يتبرع للعمل الاجتماعي كما يأكل ويشرب ويقطع طريقه اليومي . ولكنه شيئا فشيئا اصبح لا يستشعر آلام من تبرع لهم ولا يحس بالآصرة الانسانية التي تجمعه بهم . إنما هي مجرد عادة وعرف اجتماعي ! اننا في هذه الحالة نكسب العون العملي حقا ، ولكننا نخسر التعاطف الانساني وهو أجمل وأعلى وأرحم . انني — كما قلت — لا أحب ان تتبخر المشاعر الانسانية في صورة انفعالات ، ثم ينتهي الامر . ولكنني حريص كذلك ، على ان يظل الانسان انسانا ، وان ترتقي مشاعره وترهف ،

كلما أدّى عملاً خيراً . ان عمل الخير يجب أن يظل عنصر تهذيب لفاعله ولا يفقد هذا الطابع ، بجوار ما يحققه من نفع عملي لمن يوجه إليه . وإلا فقد يشطر الخير الذي يمكن أن يحققه .

وأخيراً فلعلي أكون قد كشفت — بوجه إجمالي — عن دور التربية الخلقية في تحقيق التكافل الاجتماعي — بالقدر الذي يسمح به الوقت المخصص لي . والسلام عليكم ورحمة الله .

★